المبحث الرابع

المذهب الإسلامي في الفردية والجماعية

وفيه المطالب التالية:

المطلب الأول: حقيقة المذهب الإسلامي.

المطلب الثاني: أبرز روَّاد المذهب الإسلامي.

المطلب الثالث: فلسفة التربية في المذهب الإسلامي.

المطلب الأول

حقيقة المذهب الإسلامي في الفردية والجماعية

إن سبب اختلاف المذاهب السابقة في الفردية والجماعية يعود إلى اختلاف تصوراتهم عن الطبيعة البشرية[(١)]، ولقد هدى الله أهل الإسلام إلى الحق في ذلك بما علّمهم في القرآن وفي السنة، من بيان لحقيقة النفس البشرية، والطبيعة الآدمية، وأنها مخلوقة من قبضة من

(١) انظر: كلام رودمان ويب، في كتاب «أهداف التربية الإسلامية» لماجد الكيلاني (٤٧٠).

الطين، سرت فيها نفخة من روح الله، ولذلك فطبيعتها فيها المتضادات: الطين والروح، والحب والكره، والخوف والرجاء، . . .، وكذلك الفردية والجماعية[١].

يرى أصحاب المذهب الإسلامي أن الفردية والجماعية من أخطر الخطوط في الطبيعة البشرية، وعليهما ـ في صورتهما الصحيحة أو المنحرفة ـ تقوم نظم الحياة كلِّها، صالحها أو فاسدها، وعلاقات الحياة كلها، سويها أو منحرفها، وسلوك الأفراد والجماعات[٢].

وتقوم نظريتهم على أساس الاهتمام بالنزعتين معاً، دون إغفال لإحداهما، أو المبالغة في تقدير واحدة منهما على حساب الأخرى[٣].

يقول محمد قطب: «ففي كل نفس سوية ميل للشعور بالفردية المتميزة، بالكيان الذاتي، وميل مقابل للاندماج في الجماعة والحياة معها وفي داخلها، ومن هذين الميلين معاً تتكون الحياة. ومن ثمَّ لا يكون الإنسان فرداً خالصاً، ولا يكون أيضاً جزءاً منبهماً في كيان المجموع»[٤].

ويقول: «لا تمر على الإنسان لحظة واحدة يكون

---

(١) انظر: منهج التربية الإسلامية (١٢٦).

(٢) انظر: دراسات في النفس الإنسانية (١٣٠).

(٣) انظر: الإنسان بين المادية والإسلام (١٢٨).

(٤) انظر: دراسات في النفس الإنسانية (١٣٠، ١٣١).

فيها فرداً خالص الفردية قائماً بذاته. ولا تمر عليه لحظة واحدة يكون جزءاً من القطيع غير متميز الكيان، عملية مستحيلة، غير قابلة للتحقيق.

في أشد اللحظات فردية يحمل الإنسان في قلبه مشاعر تربطه بالآخرين.

وفي أشد اللحظات جماعية يحس ـ بأنه على الأقل ـ هو الذي ينفذ رغبة الجماعة بذاته، بكيانه الفردي»[(١)].

إنَّ المذهب الإسلامي في الفردية والجماعية قائم على تحقيق إنسانية الإنسان كما أراد له ذلك خالقه ﷻ، وبهذا يحصل التوافق التام بين الفردية والجماعية في داخل النفس البشرية، وبين الفرد ومجتمعه، بل بين الفرد وجميع أفراد الإنسانية، بل والطبيعة حوله أيضاً، وذلك يكون وفق الأسس التالية:

١ ـ أن الفرد الإنساني مخلوق لله، خلقه في أحسن صورة، من آدم عليه السلام المخلوق من قبضة من طين، فلم يكن الإنسان في يوم من الأيام قرداً ولا بهيمة، بل كرَّمه الله عن ذلك كله، وجعله فرداً حراً مريداً مسؤولاً، زوَّده بالفطرة المستقيمة، والعقل المميز.

---

(١) انظر: دراسات في النفس الإنسانية (١٣٢).

٢ ـ خلق الله الفرد الإنساني ليكون عبداً له، قائماً بدور الخلافة في الأرض بمقتضى شريعته، وحرَّم عليه أي عبودية لغيره ﷻ، فكلما كان الإنسان لله أعبد كلما ازداد تحقيقه لإنسانيته، وكلما ازداد تمسكه بالوحي المنزل من عند الله كلما اكتمل عقله، وارتاحت نفسه، وسعدت حياته. وبهذين الأساسين تكتمل إنسانية الإنسان الفردية.

٣ ـ تتحقق إنسانية الإنسان الجماعية باستشعاره وحدة الأصل، فأب البشرية وأمها واحد، ولذا فهو كما يرجو لنفسه الخير، يرجو لجميع الناس الخير كذلك، فأصل العلاقة مع الآخرين قائمة على العدل، وعلى مد يد العون والإحسان، وقائمة على الدعوة إلى تحقيق إنسانية الإنسان بالعبودية الخالصة لله تعالى، ولذا فمن واجب الإنسان الحق ـ وليس ذلك إلا المسلم ـ أن ينهى من ابتعد عن إنسانيته إلى مستوى البهيمية، وينهى كذلك من ظلم نفسه بأن عبدها لغير الله، ولو أدى هذا النهي إلى حد المقاتلة، ومع هذا كله فهو بمقتضى جماعيته يمد يد الخير لجميع أفراد البشرية، فهذه هي الإنسانية الحقة في الدين الإسلامي القائمة على تحقيق فردية الإنسان وجماعيته[١].

---

(١) انظر: السلفية وقضايا العصر (٥٨٦ ـ ٦٢٦).

المطلب الثاني

أبرز روَّاد المذهب الإسلامي

مما لا شك فيه أن المذهب الإسلامي في الفردية والجماعية قد جاء واضحاً جلياً في القرآن والسنة، وقد تربى عليه جيل الصحابة والتابعين، ومن بعدهم. فقد جاء في القرآن بأن كل إنسان يحاسب على عمله فرداً، وجاء فيه الأمر بالتعاون مع المجتمع على البر والتقوى، وجاء فيه حث الإنسان أن لا يكون إمَّعة، فيسير مع المجتمع كيف سار، بل عليه أن يحسن إذا أحسنوا، ولا يسيء إذا أساءوا، وجاء فيه الحث على السمع والطاعة لولاة الأمر

ما لم يأمروا بمعصية، فالسمع والطاعة إنما تكون في حدود الشرع، وهكذا.

وعندما ظهرت في العصور المتأخرة الرأسمالية متبنية للمذهب الفردي، وظهرت الشيوعية متبنية المذهب الجماعي، قام مفكروا الإسلام يوضحون موقف الإسلام من الفردية والجماعية، فكان من أوائل من تصدى لهذا الموضوع: سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ في كتابيه: الإسلام ومشكلات الحضارة، والسلام العالمي والإسلام.

ثم تناول محمد قطب ـ حفظه الله ـ هذه القضية بشيء من التفصيل في العديد من كتبه مثل: الإنسان بين المادية والإسلام، ودراسات في النفس الإنسانية، ومنهج التربية الإسلامية، وفي النفس والمجتمع، وغيرها من الكتب. ثم تتابع بعد ذلك علماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد ممن يتبنى الإسلام عقيدة ومنهجاً بإيضاح هذه القضية[١].

---

(١) انظر: بحوث ندوة خبراء «أسس التربية الإسلامية». مجموعة في مجلد بهذا العنوان.

المطلب الثالث

فلسفة التربية في المذهب الإسلامي

يمكننا أن نقول بأن فلسفة التربية في المذهب الإسلامي تقوم على الأسس التالية:

الأساس الأول: تغذية الفردية في الإنسان.

الأساس الثاني: تغذية الجماعية في الإنسان.

الأساس الثالث: التوفيق بين الفردية والجماعية في الإنسان.

الأساس الأول: تغذية الفردية في الإنسان:

إنَّ الاهتمام بالجانب الفردي في الإنسان، والعناية به، يثمر ثمرات عديدة منها:

١ - إخلاص العبادة لله، والتعلق به وحده في جلب المنافع ودفع المضار:

فإن الفرد الذي يربي نفسه على الاستغناء عن المخلوقين، والزهد عما في أيديهم من أموال ومناصب ومتع الدنيا فإنه يتميز عن المجموع بفرديته، ويشعر بالحرية والمسؤولية، بخلاف الذي يطمع فيما في أيدي المخلوقين من أمور الدنيا فإن قلبه يتعلق بهم تعلقاً قد يصل به إلى الشرك بالله، وقد يصل به إلى الذلة والمهانة لهم، وقد يناله العذاب منهم من جرَّاء ذلك.

٢ - الثبات على دين الله تعالى، والقدرة على مواجهة المصاعب والمشاق:

إن الفرد الذي ربى جانب الفردية فيه، لديه من الاستعدادات والقدرات ما يجعله يثبت عند المحن والشدائد، بخلاف الذي أسلم قيادة نفسه للجماعة، تفكر له، وتعتني به، فإنه بمجرد انفراده عنها يضيع وينحرف.

٣ ـ مضاعفة النشاط والجهد:

لأنه يعلم أن المحاسبة على الأعمال يوم القيامة فردية، وأن جهده في الدنيا يحقق مصلحة نفسه، ويحقق ذاتيته.

٤ ـ تحرير العقل والإرادة من اعتداء الآخرين عليهما:

إن الذي ربى نفسه على أن يفكِّر لها، وينظر فيما يصلحها، ويسير وفق ذلك، بالضوابط الشرعية، فإنه يصعب على الآخرين السيطرة عليه بأهوائهم، ولذلك تجده سرعان ما ينجو من انحرافات الجماعة، ويتحرر من استبداد الطغاة، ويدافع عن نفسه، ويجهر بالحق، ويشارك بالرأي، ولا يسلم نفسه لتقاد بغير شرع الله.

ولمَّا كان لتنمية الجانب الفردي هذه الفوائد العديدة وغيرها كثير، فقد حرص الإسلام على تغذية هذا الجانب من نواحي متعددة منها:

١ ـ ربط القلب البشري بالله تعالى(١):

ويكون ذلك بتعريف الفرد بنعم الله تعالى عليه، وتعريفه بأسماء الله وصفاته وأفعاله ومنها: سعة علم الله،

---

(١) انظر: منهج التربية الإسلامية (١٦٥)، وشخصية المسلم بين الفردية والجماعية (٥٢ ـ ٥٥).

وسعة قدرته، وعظيم إبداعه، وأن الخير بيده، والشر بيده، والحياة والموت بيده، وأن المخلوقين لا يملكون له نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة، وأن المالك لذلك كله هو الله.

هذا التعلق القلبي بالله، يجعل الشخص يشعر بوجوده المستقل، ويشعر بالقوة النفسية، والتحرر من عبادة العباد.

٢ ـ إشعاره بالمسؤولية عن أعماله[1]:

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨]. ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾ [الإسراء: ١٥].

فإذا تربى الإنسان على هذا الشعور، فإنه ولا شك سيدفعه للعمل من أجل مصلحة نفسه ونفعها في الدنيا والآخرة، وسيقوم بمحاسبتها ومراقبتها، حتى تحقق له ما يرجو من الأهداف.

(١) انظر: التربية الذاتية من الكتاب والسنة (٥٦ ـ ٦٠).

٣ ـ دعوته إلى الاعتزاز بنفسه، والبعد بها عن سفاسف الأمور[١]:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. وقال ﷺ: «**لا يحقر أحدكم نفسه**». قالوا: يا رسول الله، وكيف يحقر أحدنا نفسه؟، قال: «**يرى أمراً لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله ﷻ له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى**».

٤ ـ تحذيره من متابعة الجماعة دون فهم ووعي[٢]:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال ﷺ: «**لا تكونوا إمَّعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا**».

---

(١) انظر: شخصية المسلم (٦٠)، أسس التربية الاجتماعية في الإسلام (٢ ـ ٥).

(٢) انظر: شخصية المسلم (٥٦).

٥ ـ حثه على أداء كثير من العبادات بمفرده، وحثه على الإسرار بها:

مثل: قيام الليل، وصيام النوافل، والصدقات، والنصيحة الفردية لآحاد الناس، وغير ذلك.

الأساس الثاني: تغذية الجماعية في الإنسان:

إن اهتمام الإنسان بجانب الجماعية له ثمرات عديدة منها[١]:

١ ـ التعاون على البر والتقوى، ومقاومة الظلم والعدوان.

٢ ـ تجديد النشاط والهمة.

٣ ـ اكتشاف عيوب النفس، والقيام بإصلاحها، وخاصة العيوب التي لا تظهر إلا من خلال حياة الإنسان في الجماعة: كالأنانية والكبر، والعجلة والغضب،...

٤ ـ أداء العبادات التي يتطلب أداؤها وجود الجماعة، كالصلوات المفروضة، والجهاد وغيرهما.

٥ ـ تكامل الطاقات والقدرات، وتحقيق الحاجات للنفس وللمجتمع.

---

(١) انظر: شخصية المسلم (٢٥ ـ ٣٧).

ولمَّا كان للتربية الجماعية هذه الثمرات، فضلاً عن كون الحاجة للجماعة نزعة فطرية في الإنسان، فقد اهتمت التربية الإسلامية بهذا الجانب اهتماماً عظيماً، ومن ذلك[١]:

١ ـ الربط بين صحة العقيدة وبين حسن الخلق مع المجتمع.

فجعل الدليل على صحة عقيدة الإنسان حسن الخلق مع المجتمع، وجعل سوء الخلق مع الناس دليلاً على فساد العقيدة.

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون: ١ ـ ٣]. فجعل الله من أخص صفات المكذبين بيوم القيامة، الذين فسدت عقائدهم: سوء أخلاقهم مع المجتمع، وخاصة ممن لا يرجون من ورائه نفعاً دنيوياً عاجلاً كاليتامى والمساكين. ومعنى ذلك أن من صحت عقيدته في الله وفي اليوم الآخر، فإنه يحسن خلقه مع المجتمع، سواء رأى مردود ثمرته

(١) انظر: السلوك الاجتماعي في الإسلام، حسن أيوب (١١ ـ ٢٠)، ومنهج التربية الإسلامية.

في الدنيا أم لا، لأنه سيجده عند الله تعالى.

٢ ـ وضَّح الإسلام أن المقصود من تشريع العبادات إكساب الناس التقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: ٢١] ووضح أن التقوى هي حسن الخلق بقسميه: حسن الخلق مع الخالق، وحسن الخلق مع الناس. ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

فمن أدى العبادات، وساء خلقه مع الناس، فإن ذلك يدل على نقص تقواه، وأن عبادته ما أنتجت الثمرة المطلوبة منها.

ويدل على ذلك قصة المرأة صائمة النهار، قائمة الليل، ولكنها سليطة اللسان تؤذي جاراتها، أخبر عنها النبي ﷺ أنها في النار.

ويدل على ذلك حديث المفلس، الذي يأتي يوم القيامة بعبادات عظيمة ومتنوعة، ولكنه يأتي بسوء خلق مع المجتمع، فيتقاسم الغرماء حسناته، حتى إذا فنيت

حسناته، أخذ من سيئاتهم فوضعت عليه، فطرح في النار.

٣ ـ حث الإسلام على التآخي في الله، وجعل لذلك منزلة رفيعة، وحسنات عظيمة. قال ﷺ: «**قال تعالى: حقت محبتي للمتحابين فيَّ**». وبيّن أن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه**».

٤ ـ حث الإسلام على أداء بعض الشعائر جماعة تأكيداً على الجماعة، مثل الصلاة المفروضة.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

٥ ـ أمر الإسلام بلزوم الجماعة.

٦ ـ حض الإسلام على الشورى.

٧ ـ شرع الإسلام الزواج، ورتب على ذلك الأجور الكثيرة.

٨ ـ حث على السماحة في المعاملة من بيع وشراء ونحو ذلك.

٩ ـ نهى عن كل ما يضر بالمسلم من أقوال أو أعمال كالسخرية والاستهزاء، والكبر والخيلاء، والتناجي.

١٠ ـ رتب على الأعمال الخيرية التي يقدمها الفرد للمسلمين أجوراً عظيمة، وفَضّلها على أداء النوافل من الصلوات.

الأساس الثالث: التوفيق بين الفردية والجماعية:

هذا التوفيق بين الفردية والجماعية في الإنسان هو من أعظم مميزات التربية الإسلامية عن غيرها من مناهج التربية، ويقوم هذا التوفيق على المبادئ التالية(١):

١ ـ تأكيد الإسلام على أن العلاقة الفردية التي بين العبد وربه، لا بد أن تبرز في الخارج في نظام اجتماعي عادل متحرر من كل أشكال التسلط والقهر.

٢ ـ جعل الإسلام في شرائعه من الأوامر والنواهي

---

(١) انظر: مفهوم إسلامي للتاريخ (٧١)، وأسس التربية الإسلامية (٢)، والإنسان في القرآن (٨، ١٧)، والبناء القيمي للشخصية كما ورد في القرآن الكريم (٣، ٤، ١٣)، والنظرية التربوية في الإسلام (١٦، ١٧)، والتربية والتجديد، وتنمية الفاعلية عند المسلم المعاصر (٤٣ ـ ٥٩).

ما يحقق التوازن بين الفردية والجماعية، فإذا انضبط المسلم بالشرع حقق فرديته، وخدم مجتمعه، دون تجاوز من أحدهما على الآخر.

٣ ـ بدأ الإسلام في بناء المجتمع من خلال ضمائر الأفراد ووجدانهم، فغرس فيها بذر الحب والرحمة للمؤمنين، وجعل محبتهم من حقيقة الإيمان بالله، ومن الأمور الجالبة لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

٤ ـ جعل الإسلام العلاقة بين أفراد المجتمع علاقة تكافلية، وأقام السلام على أساس مصلحة الفرد والمجتمع، على خلاف المذاهب الأرضية، فقد جعلت العلاقة بين أفرادها علاقة صراع وتنافس، وأقامت سلامها إما على مصلحة الفرد دون المجتمع، أو العكس.

٥ ـ جعل الإسلام قيماً منظمة لعلاقة الفرد بربه، وقيماً منظمة لعلاقة الفرد بنفسه، وقيماً منظمة لعلاقة الفرد بالآخرين، هذه القيم لو ربى المسلم نفسه عليها لأصبح نموذجاً فريداً، تشرأب الأنظار إليه، ولتكون من هؤلاء الأفراد مجتمعات سوية، ولعادت الأمة الإسلامية إلى مكانتها من القيادة والريادة، ولحلَّ السلام الحقيقي بالعالم أجمع. ولولا خشية الإطالة لذكرت بعض ما أوجبه الله على الفرد تجاه والديه، وتجاه زوجته وتجاه أولاده وتجاه

جيرانه وتجاه أقاربه وأرحامه وتجاه ولي أمره..، ولذكرت بعض الحقوق التي أوجبها الله على أولئك من والدين وجيران وأقارب وولاة الأمر تجاه الفرد، وهو معروف مشهور في ديننا الإسلامي، لو التزم الفرد بواجباته الشرعية تجاه مجتمعه، والتزمت مؤسسات المجتمع وولاة الأمر والجماعات المختلفة بواجباتها الشرعية تجاه الفرد، لما حدث أي صراع البتة داخل النفس البشرية بين الفردية والجماعية، ولما حدث أي صراع البتة بين الفرد ومجتمعه، ولحدث التوازن والتكامل في النفس وفي الواقع.